كيف أسلم المغول؟

[دور التركستان في إسلام المغول]

بقلم:

د. محمد علي البار

بسم الله الرحمن الرحيم

كيف أسلم المغول ؟

مقدمة :

رغم أن الغزو المغول على العالم الإسلام كان مدمراً بصورة مرعبة، إلا أنه لم تمض سنوات قلائل حتى بدأ الإسلام يدخل إلى قلوب بعض رجالهم، ويتولى بعض المسلمين المناصب الهامة في الدولة فيخففون من ويلات ذلك الدمار المرعب، ويعيدون بناء كثير من المدن التي سويت بالتراب، مثل بخارى وخوارزم وسمرقند وخجند.. الخ ولم يكد يمضي نصف قرن من الزمان على بداية الغزو المغولي المرعب حتى تحول أغلب المغول إلى الإسلام الذي حاربوه، وصاروا من أبنائه والمدافعين عنه، على ما بقي في كثير منهم من عاداهم السابقة، والتزام بعضهم بقوانين وأعراف أليسا التي أنشأها جنكيز خان وفرضها على أتباعه وأبنائه.

ومع ذلك فقد ظهر منهم حكام وملوك وعلماء أتقياء فمن ملوكهم الكبار المشهورين الذين دافعوا عن الإسلام وحاربوا أهلهم وقرابتهم في الذود عن حياضه بركه خان بن جوجي بن جنكيز خان الذي تولى حكم الأورد (الألوس=القبيلة) الذهبي، والذي امتد حكمه من شمال التركستان حتى نهر الفولجا في روسيا.. ومنهم السلطان محمد أوزبك الذي حكم مناطق واسعة من روسيا وكل الأراضي المحيطة بنهر الفولجا وإلى القرم وغيرها، وهو أيضاً من نسل جوجي بن جنكيز خان.

كما إن منهم السلطان العظيم الشأن طرمشرين الذي حكم كل بلاد ما وراء النهر والتركستان وهو من نسل جغتاي بن جنكيز خان، وقد كان جغتاي عدواً للمسلمين محارباً لهم مدمراً لمدنهم وأراضيهم، وأخرج الله من نسله هذا الرجل الصالح المؤمن الذي يُشَّبه في عدله وتواضعه بعدل عمر بن عبد العزيز والخلفاء الراشدين.

بل إن ايلخانية فارس والعراق والشام تحولوا إلى الإسلام وهم من نسل هولاكو بن تولي. وهولاكو هو عدو الإسلام الأول، وهو الذي حطّم بغداد، وقضى على الخلافة العباسية وروّع العباد والبلاد، فأخرج الله من ذريته من يؤمن بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وآله وسلم نبياً ورسولاً.

وهذه الجوانب من تاريخ المغول وكيف أسلموا مجهولة أو شبه مجهولة من عامة المثقفين، ومن العسير الوصول إلى معلومات موثقة وضافية عن كيفية إسلام هؤلاء المغول وكيف استطاع المسلمون المهزومون أن يجعلوا المنتصر يتحول إلى يدهم؟ والمعتاد في تاريخ البشر أن المهزوم يُقلّد المنتصر، وأن المحكوم يتبع دين حاكمه، وفي المثل (الناس على دين ملوكهم)، فكيف استطاع المسلمون المهزومون والممزقون أن يعيدوا بناء هذه الإمبراطورية التي شملت الصين شرقاً، وامتدت إلى بولندا والمجر غرباً، ومن أقاصي شمال سيبيريا حتى الهند جنوباً.. وهي لاشك أعظم إمبراطورية عرفها التاريخ من حيث المساحة، وإن كان إسهامها الحضاري ضئيلاً أو معدوماً في أول الأمر، ثم بعد أن توطد ملكها واتخذت نظم وأديان الأمم التي انتصرت عليها وقهرتها، استطاعت أن تسهم في ميدان الحضارة والرقي والعلم ولو بنصيب.

وقد بدأتُ البحث بالتعريف بالتركستان لعدة أسباب منها أن الأتراك والمغول يتداخلون في قبائلهم، وفيها أن إسلام الأتراك سبق إسلام المغول وأن الأتراك هم أصحاب الفضل بعد الله في إسلام المغول، ثم دلفت بعد ذلك إلى تعريف المغول ودولهم وكيف أسلموا ؟

ولاشك أن هناك جوانب كثيرة غامضة، وتحتاج إلى دراسة وثائق ومراجع ليست تحت يدي حتى يمكن أن ينجلي هذا الغموض، وأنا أعدو المختصين في تاريخ المغول والتركستان، وهم قليل في العالم العربي، أن يولّوا هذه النقطة الهامة ما تستحقه من البحث والتنقيب، فمعرفتهم باللغات الفارسية والتركية والروسية تستطيع أن تلقي الضوء على بعض هذه الجوانب.

ومن المهم لنا في هذا الزمن المدلهم الذي تكالبت فيه على أمة الإسلام الأعداء، وبلغ المسلمون الحضيض أو كادوا في الذلة والمهانة لأعدائهم من يهود ومستعمرين وامبرياليين ورأسماليين، أن ندرس حسب المقدرة وما توفر من مصادر كيف استطاع المسلمون أن ينهضوا من كبوتهم وينشروا دينهم في صفوف ألدّ أعدائهم، لعلنا نستفيد من الدرس، ونقوم بمثل ما قاموا به، فالناس في هذا الزمان (وفي كل زمان) في أشد الحاجة لنور الإسلام، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

من هم المغول ؟ وكيف قامت دولتهم ؟

اشتهرت الدولة التيمورية في الهند باسم دولة المغول وخاصة في الآداب الغربية، والواقع أن التيموريين ليسوا من المغول، بل هم من الترك الذي يمتون بصلات نسب ومصاهرة مع المغول، وهم ينتسبون إلى تيمورلنك (أي تيمور الأعرج) وهو نفسه يدعى تيمور كـــركن (أي المليح). وقد أقام تيمورلنك إمبراطورية باذخة عاصمتها سمرقند، ولكنها كانت مليئـــة بالدماء والجماجم، ثم استطاع أحفاده أن يقيموا دول في شمال أفغانستان (السلطان حسين بايقرا في هراة)، وألوغ بيك المحب للعلوم في بخارى وسمرقند وبلخ، ثم ظهر محمد بابر الذي كون دولة في أفغانستان، ومنها انطلق إلى الهند فكوّن الإمبراطورية التيمورية في الهند، والتي حكمت الهند كلها لعدة قرون، وتميزت بالتسامح الديني مع الهندوس وغيرهم حتى جـــاء الإنجليز وأزاحوهم رويداً رويداً عن ممالكهم.

ويقال أن جد تيمورلنك من جهة أمه هو جغتاي بن جنكيز خان حيث حكم ألـــوس (قبيلة) جغتاي التركستان، ويؤكد المستشرق فامبري أن تيمورلنك ينتسب من جهة أبيه إلى قبيلة بلاس التركية، فهو إذن تركي من جهة الأب، مغولي من جهة الأم.

أما المغول فهم القبائل التي سكنت هضبة منغوليا شمالي صحراء جوبي، وتنقسم منغوليـــا إلى قسمين :

الأول : شمالي غربي به جبال كثيرة وبه عدة أنهار.

الثاني : جنوبي شرقي ويشمل صحراء جوبي وسهل شامو الذي تغطيه الحصباء الـــشديدة الصلابة، ولا توجد به أنهار إلا على الحافات.

وتوجد بعض البحيرات في منغوليا. ومناخ هذه البلاد شديدة البرودة في الشتاء، (تصل إلى ٥٨ تحت الصفر) وشديد الحرارة في الصيف (تصل إلى ٦٠مئوية) بالإضافة إلى الرياح الشديدة.

وكانت قبائل المغول في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ينقسمون إلى قبائل رعوية لديها الماشية والخيول، وتنصب خيامها من اللباد، وتنتقل بماشيتها من مكان إلى آخر طلباً للمرعى. وكانت القبائل الأخرى تعيش على الصيد، وهؤلاء يصيدون الأسماك من البحيرات والأنهار الموجودة أو يصيدون الحيوانات البرية في الغابات، وخاصة السّمور الذي يتميز بفرائه الجميل، والذي كان هؤلاء الصيادون يجمعونه ويبيعونه للتجار، ويعيش هؤلاء الصيادون في أكواخ بسيطة من أوراق الشجر وأخشابها.

ولاشك أن البيئة القاسية قد فرضت على طوائف المغول والأتراك الرعويين أن يعيشوا حياة بدوية قاسية جعلت منهم مقاتلين أشداء، وفي نفس الوقت مجموعات متناحرة كثيرة النزاع، وليس لها أي حضارة.

وقد كانت هذه المجموعات البدوية تمارس ضغطاً مستمراً على الدول المتمدينة المجاورة وكانوا يدخلون الرعب على هذه البلدان بغاراتهم المتكررة، وتحتاج هذه الدول إلى قوات كبيرة لصدهم وإخضاعهم، كما اضطرت الصين لبناء سورها العظيم لتجنب هجماتهم المتكررة.

وقد وصف أحد الجنود الرومان الذين قدِّر لهم أن يصلوا إلى الاسبتيس (سيبيريا الجنوبية) هؤلاء الجنود بأنهم يدخلون الرعب في النفوس وهم على ظهور جيادهم.. وهم صغار الأجساد إذا ما وقفوا، ولكنهم عمالقة إذا ما امتطوا ظهور جيادهم.

ويمت إلى قبائل المغول هذه قبائل أخرى عرفت باسم التتار (وقد عرف المسلمون قبائل جنكيز خان وأحفاده باسم التتر) والمغول والتتر التونغز (بدو الأتراك) جميعهم من الجنس الألتائي، نسبة إلى جبال ألتاي التي تقع شمال صحراء جوبي، وكلهم بدو رُحَّل ويقطنون المناطق الشمالية من آسيا (سيبيريا المغولية والاستيبس) ولهم لغات متشابهة، وأشكالهم تكاد تكون متماثلة : وجوههم عريضة، ورؤوسهم كبيرة، وأنوفهم فطساء، وعيونهم غائرة صغيرة ذات جفون مسترخية، وشفاههم غليظة وذقونهم جرداء، وشعور رؤوسهم سوداء..

وهم قصيروا القامة ذوو أجسام ممتلئة وعضلات قوية تناسب حياتهم الرعوية الشاقة وركوبهم الخيل.

وقبائل التتار يسكنون المنطقة التي تُحدُّ شمالاً بنهري أرقون وسلنجا ومملكة القرغيز، وشرقاً بإقليم الخطا (شمال غرب الصين)، وغرباً ممالك الأويغور وجنوباً إقليم التبت ومملكة التانجوت.

وكانوا في أغلب الوقت مطيعين لملوك الخطا.. واشتهروا بشدة البأس والشكيمة ويعيشون في صراع دائم فيما بينهم، ولولا ذلك لتغلبوا على الخطا وغيرهم.

وانتشر استعمال لفظ التتار ليشمل جميع تلك القبائل بما فيهم المغول وبدو الأتراك التغزغز، والغريب حقاً أن جنكيز خان المغولي قام بحرب عنيفة بلغت حد الإبادة ضد هؤلاء التتار الذي حاربوه وناوشوه وقاوموه حتى قضى عليهم، ولم يُبقِ إلا النساء فتزوج منهم المغول، فكان من النسل الجديد عدد كبير من قادة جيوش جنكيز خان وجنوده، ومن هنا ظهر اسم التتار مرة أخرى كعلم على المغول.

ومنهم قبائل كرايت Kerait وموطنهم الواحات الشرقية الداخلة في صحراء جوبي، وجنوبي بحيرة بايكال Baikal حتى سور الصين، وهم أصلاً من قبائل المغول والغريب حقاً أنهم قد دخلوا المسيحية منذ بداية القرن الحادي عشر الميلادي (١٠٠٧م/٣٩٨هـ) عندما تنصَّر ملكهم، وكانوا أكثر تنظيماً وانضباطاً من القبائل المغولية الأخرى. وكانوا هم أقوى قبائل المغول في القرنين الخامس والسادس الهجريين (الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين). وكان طغرل Toghril من أشهر ملوكهم، واستطاع التغلب على عمه كورخان، الذي كان ينافسه على العرش، وقد سانده في ذلك رئيس عشيرة مغولية يدعى (يسوكاي) هو والد جنكيز خان، وكذلك استطاع أن يهزم التتار تلبية لرغبة إمبراطور الصين الشمالية (أسرة كين التي كانت تحكم شمال الصين وممالك الخطا ومنشوريا ومنغوليا، وكانت عاصمتهم بكين ثم انتقلت بعد ذلك إلى كاي فونج) Cai Fong. وقد منحه

إمبراطور الصين لقب (وانج) تقديراً لأعماله وقد عرف طغرل بلقبيه الصيني والتركي (وانج خان).

وكان الكرايت يحاربون أيضاً قبائل النايمان وهم من الأتراك الذي يغلب عليهم الطابع المغولي، وسيأتي ذكرهم.

وفي عهد جنكيز خان كان أونك خان ملكاً على قبائل الكرايت وفي بادئ الأمر كانت تربطهما صداقة ومودة، ما كان بين "يسوكاي" والد جنكيز خان وملك الكرايت من الصداقة ولكن الأمر تبدّل، وقامت الحرب بين الصديقين فقضى جنكيز خان على صديقه القديم.

ومنهم قبائل مركيت Markit ويطلق عليهم أيضاً اسم مكريت. وهم يسكنون شمال قبائل الكرايت المتقدم ذكرهم، على مجرى نهر لسنجا وجنوب بحيرة بايكال، ويعدُّون أنفسهم من جنس المغول، ولكنهم كما هو معتاد في هذه القبائل البدوية، حاربوا الكرايت وملكهم أونك خان، كما حاربوا جنكيز خان، وقد قضى عليهم جنكيز خان بقسوته المعروفة.

ومنهم قبائل (أويرات Oirat) أو (أويراد Oyerad) وهم من أصل مغولي، ولكن لغتهم تفترق قليلاً عن القبائل الأخرى المغولية، وقد كانوا يقيمون في المنطقة الواقعة بين نهر (أونن) وبحيرة (بايكال) وكان عددهم كبيراً ولما جاء جنكيز خان قدموا له الخضوع والطاعة بعد تمنع، ثم صاروا من جنده وأتباعه وتزوج جنكيز خان منهم.

وممن ينسب إلى المغول قبائل النايمان : وهم قبائل تركية غلب عليهم الطابع المغولي ويقطنون الحوض الأعلى لنهر (أرخن) ومنحدرات جبال ألتاي، ويدينون بالمسيحية مثل قبائل كرايت، وكان يطلق على ملكهم لقب "كوشلوك خان" أي الملك العظيم القوي. وفي زمن جنكيز خان كان لهم ملك يدعى (تايا نك خان) وقد قضى عليه جنكيز خان بعد حرب طاحنة.

وهناك قبائل تركية بحتة ولكنها تمت إلى المغول بصلة المصاهرة والتحالف في كثير من الأحيان، والحرب والمخاصمة في أحيان أخرى.

يقول المؤرخ رشيد الدين فضل الله الهمذاني في كتابه "جامع التواريخ" الذي كتبه باللغة الفارسية[1] "مع أن الأتراك والمغول وشُعَبَهم يتشابهون، ولغتهم في الأصل واحدة، فإن المغول صنف من الأتراك، وبينهم تفاوت كثير واختلاف سنشرحه في مواضعه إن شاء الله تعالى".

ومن هؤلاء الأتراك المتصلون بالمغول القبائل التركية التالية :

١ــ **الأتراك القراخطائيون** : وقد كونوا دولة كبيرة قبيل ظهور دولة جنكيز خان، وكانت دولتهم تقع ما بين مملكة الخوارزميين في الغرب ومساكن المغول في الشرق، وهم من قبائل الخطا النازحين من شمال الصين، وهم خليط من المغول والتانجوت والعنصر التركي، وقد حكموا شمال الصين ومنشوريا من سنة ٣٠٤هـ إلى سنة ٥١٩هـ/٩١٦م-١١٢٥م. وقد انهارت دولتهم في الصين، ولكنها بقيت في التركستان الشرقية، وتغلبوا على القراخانيين الذين دخلوا الإسلام في القرن الرابع الهجري حيث أسلم ملكهم ستوق بغراخان سنة ٣٢٣هـ/٩٤٣م وأسلمت معه مائتا ألف خيمة (أكثر من مليون). ثم تغلب هؤلاء القراخطائيون على السلطان السلجوقي سنجر واضطر أن يدفع لهم الأتاوه (الجزية) ليبقوا في مناطقهم، وتبعته في ذلك الدولة الخوارزمية حتى جاء علاء الدين محمد خوارزم شاه فرفض دفع الأتاوه فحاربوه وحاربهم وانتصر عليهم.. وكانوا هؤلاء القراخطائيون يمثلون حاجزاً بين القبائل المغولية الهمجية وبين الدول الإسلامية في التركستان، فلما انهار هذا السد جاء طوفان المغول وخاصة على يد جنكيز خان كما سيأتي شرحه.

وعندما تغلب جنكيز خان على قبائل النايمان لجأ رئيس قبائلهم كوجوك خان إلى القراخطائيين وتزوج ابنة ملكهم فلما مات الملك أعلن نفسه خاقانا، وحارب جنكيز خان فكانت نهاية دولة القراخطائيين.

---

[1] نقلاً عن د. فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ ، دار النهضة العربية بيروت ، ١٩٨٠ ج١/٢٠ الذي يعتبر كتاب رشيد أهم مصدر في تاريخ المغول.

٢ــ **الأتراك الأويغوريون** : وكانوا يسكنون شمال شرق تركستان الحالية.. وهم قبائل متناحرة ولكنهم اتفقوا أخيراً على إقامة ملك لهم يجمعهم ضد أعدائهم (أيدي قوت : أي رئيس للدولة) وكانت لهم كتابة، وهي التي اتخذها جنكيز خان أبجدية لغته المغولية التي لم تكن تكتب، وكانوا يدينون بأديان شتى هي الشامانية والمانوية والبوذية والمسيحية، وقد دخلت المسيحية قبل الإسلام بعدة قرون. ولما ظهر جنكيز خان صاروا من أتباعه وقادة جنده، ولعبوا دوراً مهماً في دولة جنكيز خان وأولاده.

٣ــ **قبائل القرغيز** : يسكنون أعالي نهر ينيسي، واتخذ رئيسهم لقب خاقان في القرن الثامن الميلادي.. وتمتد أراضيهم لتشمل جمهورية قرغيزيا الحالية إلى تركستان الشرقية التي تحتلها الصين حالياً وتسميها سينكيانغ (المستعمرة الجديدة) ولا يزال القرغيز يمثلون الأكثرية في التركستان الشرقية.

وقد أسلمت عشرة آلاف خيمة على يد القراخانيين الأتراك سنة ٤٣٥هــ/١٠٤٣م ولكن بقيت كثير من قبائل القرغيز على دينها الوثني (الشاماني) حتى أسلمت في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين على يد الدعاة إلى الله من العلماء والصوفية.

وقد استطاع القرغيز أن يستولوا على أراضي الايغور في منغوليا سنة ٨٤٠م ولكن الخطا (القراخطائيون) طردوهم بعد ذلك من منغوليا، ولما ظهر جنكيز خان خضعوا لحكمه سنة ٦١٥هــ/١٢١٨هــ وصاروا من جنده.

٤ــ **قبائل القرلوق** : وتقع أراضيهم جنوب مملكة الأويغور في الحوض الأسفل لنهر تاريم ويختلفون عن جميع الأقوام السالفة في سحناتهم وأشكالهم فهم صباح الوجوه، أقرب إلى البياض، وأطول من القبائل المنغولية والتركية الأخرى.

وقد كانوا أول من أسلم من قبائل الأتراك الشرقية وعرفوا بعد ذلك بالتركمان.

٥ــ **الأتراك القراخانيون (الدولة القراخانية، الدولة الخاقانية)** : وهؤلاء من الأتراك المعروفين باسم التغزغز لدى المؤرخين المسلمين، وقد دخلوا في الإسلام منذ القرن

الرابع الهجري عندما أسلم ملكهم ستوق بقراخان وأسلمت معه مائتا ألف خيمة كما تقدم، وذلك سنة ٣٢٣هـ/٩٤٣م.

ويبدو أن القراخانيين قد شكلوا دولة قوية لفترة من الزمان، وكان معهم القرلوق وغيرهم،.. وقد استشهد خان كاشغر وهو من القراخانيين سنة ٣٨٩هـ/٩٩٨م أثناء جهاده في نشر الإسلام في المناطق الواقعة شرق كاشغر، وفي عام ٤٣٥هـ/١٠٤٣م استطاع القراخانييون أن يكسبوا إلى صف الإسلام أكثر من عشرة آلاف خيمة من القرغيز / ونشروا الإسلام على جانبي جبال تيان شيان، وأظهروا خضوعهم للخليفة العباسي، واتخذ ملكهم ايلك خان لقب ناصر الحق.

وسرعان ما تحولت أبجديتهم اليغورية وثقافتهم الصينية إلى الحرف العربي والطابع الإسلامي الصرف.

وقد قامت الحروب بينهم وبين دولة القراخطائيين (الخطا وهم خليط من المغول والتانجوت والعنصر التركي) وكانت الغلبة للقراخطائيين الكفار. ولما ظهر جنكيز خان أخضع جميع هذه المناطق لحكمه، وكان القراخطاي، يستبدون بالمسلمين من القراخانيين فلما ظهر جنكيز خان فرحوا بمقدمه واعتبروه محرراً لهم فعاملهم معاملة حسنة.

هل عرف المغول الإسلام قبل ظهور جنكيز خان ؟

يبدو لأول وهلة أن الإسلام لم يدخل إلى المغول إلا بعد أن دخل حد أحفاد جنكيز خان في الإسلام وهو بركة بن جوجي بن جنكيز خان (وسيأتي عنه الحديث مفصلاً) ولكننا نعرف أن مؤسس الطريقة الياسوية العالم الفاضل الشاعر المجاهد الداعية إلى الله أحمد أليسوي هو مغولي الأصل وقيل أنه عربي الأصل، وقد ولد هذا الشيخ في مدينة يسيّ في منطقة تشيمكند وهي في جمهورية قازاقستان، وكانت وفاة هذا الشيخ العلامة الصوفي المجاهد في مدينة سرباق (وتدعى مدينة تركستان وهي في قازاقستان وقبره معروف) سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م (أي قبل ظهور جنكيز خان بستين عاماً تقريباً) وقد أسلم على يدي

هذا الشيخ مئات الآلاف من التركستان (القبائل البدوية المعروفة لدى المؤرخين المسلمين باسم التغزغز)، كما أسلم على يديه الآلاف من قبائل المغول.

ونحن نعرف أن المسيحية والبوذية والمانوية بالإضافة إلى الشامانية (عبادة الأسلاف والأوثان) كانت منتشرة لدى كثير من قبائل الأتراك والمغول، وكما أسلفنا فإن المسيحية انتشرت بين قبائل الكرايت عندما تنصر ملكهم سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٧م، كما أن النصرانية دخلت إلى قبائل النايمان وقبائل المركيت. وبطبيعة الحال لم تكن المسيحية هي الغالبة على هؤلاء الأقوام بل كانت الديانة الشامانية هي الغالبة وهي الديانة التي كان ينتمي إليها جنكيز خان. ولكن الأديان الأخرى مثل البوذية والمانوية والمسيحية كانت موجودة.

وكذلك ظهر الإسلام في هذه القبائل، وإن لم يكن مسيطراً إلا على عدد محدود، منهم قبائل القراخانيين الذين أسلموا بإسلام ملكهم، وكونوا دولة إسلامية كما أسلم عدد من القرغيز (عشرة آلاف خيمة) كما أسلفنا، ورغم ذلك فإن الشامانية هي الدين السائد في عهد جنكيز خان لدى هذه القبائل.

تموجين (جنكيز خان) (٥٤٩-٦٢٥هـ/١١٥٥-١٢٢٧م) :

يعتبر تموجين (جنكيز خان) عبقرية عسكرية فذة فقد استطاع أن يوحد قبائل المغول والترك، وأن يوجد إمبراطورية شملت الصين شرقاً، ونهر الفولجا وروسيا وبولندا غرباً، ووقفت عند أسوار فينا، كما وصلت إلى سيبيريا شمالاً والهند جنوباً، فهي من أعظم الإمبراطوريات في التاريخ اتساعاً، وقد تميزت بسرعة الانقضاض على الأعداء وبتدمير عدد كبير من الحضارات.

واستطاع هؤلاء الفرسان الغلاظ القلوب القساة الأشداء أن يرعبوا العالم القديم والإمبراطوريات والحضارات الموجودة آنذاك، وسعت كافة الأمم والأديان إلى محاولة التقرب إلى هؤلاء الأشداء القليلي الحظ من الحضارة، والذي تميّز كثير من قادتهم بالانفتاح على الآخرين، والاستفادة من خبراتهم، وبالتالي كان قصر القاآن يعجُّ بممثلي كافة الدول، كما كان جنكيز خان وأبناؤه يستخدمون الأكفاء في الإدارة والوزارة من كافة الأعراق

والأديان، فقد تولى الصينيون (البوذيون) عدة مناصب هامة في أيام جنكيز خان، وفي عهود أبنائه وأحفاده، كما تولى عدد من المسلمين الوزارة والإدارة في هذه الإمبراطورية الواسعة، من أشهرهم محمود يلواج الخوارزمي وابنه مسعود بيك الذين سيأتي الحديث عنهما بشيء من التفصيل لأهمية دورهما في حماية المسلمين، وفي إعادة بناء مدن التركستان الهامة مثـــل بخارى وسمرقند وخوارزم وخوقند..الخ كما كان لهما دور عظيم في جعل بعض الأمـــراء والأميرات من المغول يتعاطفون مع الإسلام والمسلمين ابتداء من جوجي بن جنكيز خـــان الذي هاله مدى الخراب الذي أوقعه والده جنكيز خان بالأراضي المفتوحة حتى قال حسب ما ذكره باتولد عن الجوزجاني[٢] أن القاآن الأعظم جنكيز خان قد فقد عقله كي يقتل كل هذا الخلق، ويخرّب كل هذه المدن والبلاد، وأن الصواب أن يُقتل والده القاآن أثناء الصيد، وأن يعقد هو خلفاً مع المسلمين. وقد أكد هذه الرواية أيضاً المؤرخ رشيد الـــدين فـــضل الهمداني في كتابه (جامع التواريخ)[٣] وقد نما هذا الخبر إلى جغتاي الابن الثاني لجنكيز خان، فأسرع بنقله إلى والده الذي أمر بسمٍّ جوجي سراً.

وقد توفي جنكيز خان في إقليم كان سو الصيني بالقرب من مدينة تسن جو في رمضان ٦٢٤هـــ الموافق أغسطس ١٢٢٧م، وقد سبقه بستة أشهر ابنه الأكـــبر جـــوجي المحـــب للمسلمين والكاره للدماء، وكان جوجي فيما بين الثلاثين والأربعين عند وفاته.

وقد استطاع جنكيز خان الذي فقد أباه في سن الثالثة عشرة والذي تعرض لانفـــضاض رجال قبيلته عنه لصغر سنه، استطاع في فترة وجيزة بعد معاناة لشظف العيش والأهوال، أن يوحد قبيلته تحت زعامته، ثم أخضع قبيلة كرايت وقبيلة النايمان (وكلاهما كانت قـــد انتشرت فيهما المسيحية) وسيطر على مملكة كين (إمبراطورية الصين الشمالية) كما سيطر على جميع القبائل المغولية والتتارية والتركية المتشابكة معها مثل الأويغور والقراخطـــائيين والقرغيز والقراخانيين.

[٢] فاسبلي بارتولد "التركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي" ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٨١ ص٦٤٠.

[٣] نقلاً عن د. فؤاد الصياد : المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٠ ج١٣٨/١ وقد ذكر الصياد أن هذه الرواية ذكرها الجوزجاني في كتابه طبقات ناصري ص ٣٧٩، ورشيد الدين في كتابه جامع التواريخ ج٣٨٥/١.

وكان جنكيز خان يظن أن الدولة الخوارزمية قوية فأراد أول الأمر أن يقيم معها علاقات ودية وعلاقات تجارية، ولكن قتل التجار المغول والأتراك (وإن كان أكثرهم أو كلهم من المسلمين) في أترار على يد حاكم أترار الخوارزمي (ابن خال السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه)، ورفض السلطان أن يسلمه إلى جنكيز خان، بداية لأنهار من الدم تسيل، وانهيار تلك الدولة الخوارزمية الباذخة وتحطم مدنها الكبرى : خوارزم وبخارى وسمرقند وخجنده .. الخ.

وانساح قوات جنكيز خان إلى إيران والقوقاز إلى شمال أفغانستان وإلى بحر قزوين في مطاردة علاء الدين محمد خوارزمشاه، ثم في مطاردة ومقاتلة ابنه، البطل جلال الدين منكبرتي، وقد كانت وفاة علاء الدين محمد في شوال سنة ٦١٧هـ/١٢٢١م كما توفي جلال الدين منكبرتي في منتصف شوال ٦٢٨هـ/١ أغسطس ١٢٣١م في إحدى قرى ميافارقين، قتله أحد القرويين الأكراد ليستولي على متاعه وسلاحه.

وهكذا انهارت الدولة الخوارزمية الباذخة بسبب الترف، وبسبب تدخل والدة السلطان علاء الدين في شؤون الحكم (تركان خاتون) حتى حاربت ابنها من أجل التسلط والحكم، وحتى أدت إلى النزاع في البيت المالك مما أدى في النهاية إلى ضعفه وانهياره، كما أن علاء الدين محمد، قد حارب الخليفة العباسي الذي رفض أن يُدعى للسلطان علاء الدين محمد من المنابر، وأدت هذه الحرب إلى أن يتخلّى السلطان علاء الدين عن المذهب السُنّي وأن يعتنق المذهب الشيعي، وأن يعيّن علوياً خليفة للمسلمين فأدى ذلك إلى ثورة العلماء والعامة ضده، فكل رعاياه تقريباً من السنة، وللأسف قام الخليفة العباسي بمراسلة جنكيز خان ليقضي على عدوه اللدود السلطان علاء الدين فكان بذلك أول من أدى إلى الغزو المغولي المدمر الذي حطم بغداد نفسها في نهاية المطاف وقضى على دولة الخلافة، بعد أن قضى على الدولة الإسلامية في إيران وخراسان وأفغانستان والتركستان وشمال الهند وبحر قزوين والقوقاز وديار بكر وميافارقين والشام. ولم تتوقف جحافل المغول إلا في عين جالوت التي انتهت لأول مرة بهزيمة المغول وانتصار المسلمين على يد قطز والظاهر بيبرس

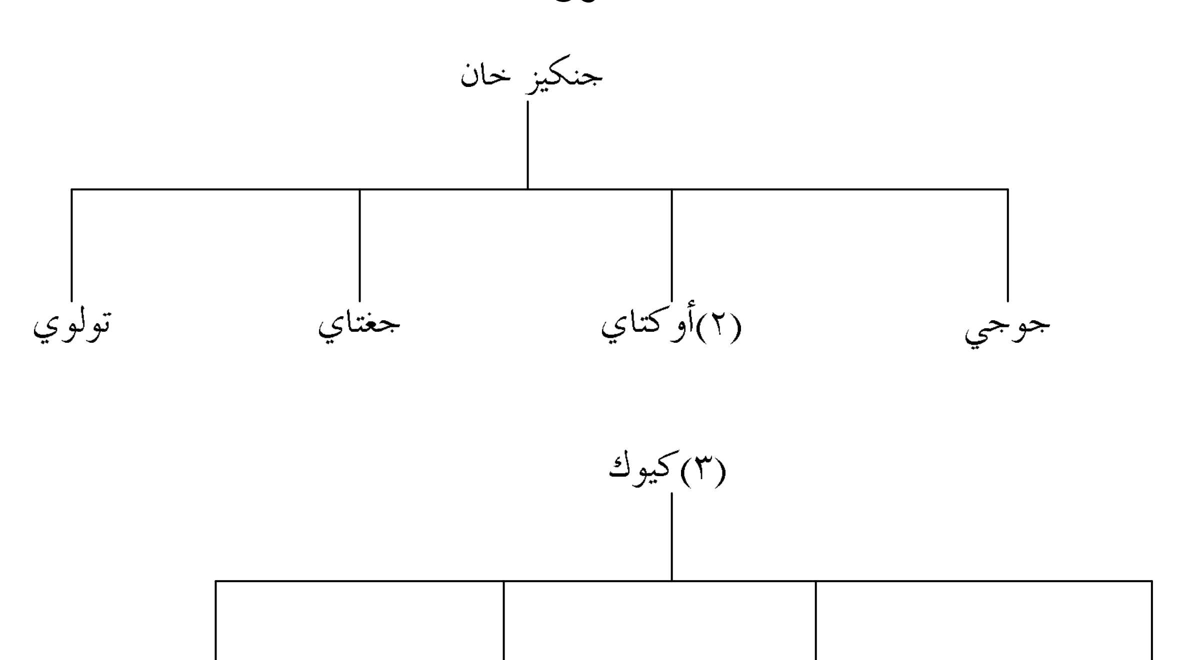
وذلك في ١٥ رمضان ٦٥٨هـ/٣سبتمبر ١٢٦٠م فكانت بذلك نهاية هزائم المسلمين على يد المغول وبداية تحول ايلخائية فارس والعراق إلى الإسلام كما سنذكره في حينه.

أولاد جنكيز خان وأحفاده

وفيما يلي رسم بأسماء خانات المغول من أبناء جنكيز خان وأحفاده ثم تليـه خريطـة توضح مملكة كل واحد من هؤلاء الأربعة الأبناء وقد تبع كل واحد من هؤلاء الأبناء عدد من الأسرة الحاكمة وقادة الجيش وجنوده ويدعى ذلك الألوس أو الأورد (القبيلة)، ثم يلي ذلك خريطة توضح اتساع الإمبراطورية المغولية الممتدة لتشمل الصين شرقاً إلى أبواب فينا غرباً، ومن سيبيريا شمالاً إلى أفغانستان والهند جنوباً.

وسنتحدث عن أبناء جنكيز خان ثم عن أحفاده.

خانات المغول



أبناء جنكيز خان الأربعة :

قسم جنكيز خان مملكته في أثناء حياته على أبنائه الأربعة من زوجته الأولى يوسنجن بيكي. وقد دربهم على الحروب وقيادة الجيوش وولاهم كثيراً من المناصب في حياته، وعرف ميزات كل واحد منهم، وكان قانون الياسا الذي وضعه جنكيز خان ينص على أن يبقى أصغر الأبناء في بيت أبيه ومملكته الأصلية (أي أرض المغول) بينما تكون أبعد الأراضي للابن الأكبر، يليه الابن الثاني يليه الابن الثالث أما الرابع فهو الأصغر، وهؤلاء الأبناء هم :

١ـ **جوجي** : (وفاته ٦٢٥هـ/١٢٢٧م) في حياة والده كما أسلفنا، وقد أمر والده بالتخلص منه سراً لاعتراضه على دموية القاآن الأعظم، وكانت الأراضي الممنوحة له تقع في القبجاق (شمال التركستان وبالذات جمهورية قازاقستان الحالية) إلى بحر الخزر (بحر قزوين) ومنه إلى حوض نهر الفولجا شاملة بذلك أراضي روسيا وممتدة حتى بولندا وأوروبا الشرقية، وكان يحب المسلمين ويعطف عليهم.

٢ـ **جغتاي** : (وفاته ٦٣٩هـ/١٢٤٢م) هو الابن الثاني لجنكيز خان وأكثر الأبناء صرامة ودموية، وأكثرهم حفظاً وتمسكاً بتعاليم الياسا. وكانت الأرض المعطاة له تشمل إيران وخراسان وأفغانستان وأجزاء كثيرة من التركستان وبلاد ما بين النهرين أموداريا (جيحون) وسرداريا (سيحون).

وفي عهده لم يظهر أحد من المسلمين في بلاطه سوى حبش عميد الذي كان يعتبر بمثابة الخائن من جمهرة المسلمين لأنه لم يهتم بحماية المسلمين أو ترقية شأنهم، بل اهتم بمصلحته الشخصية. وكان معظم رجال جغتاي من الصينيين البوذيين الذين كانوا يحقدون على المسلمين، وعندما حدثت فتنة تاربي وثار على حكم المغول الكفار في بخارى وما حولها، وأبدى بعض الخوارق وحقق نصراً على القوات المغولية، ولكنه قتل هوي والشيخ المحبوبي بسهام المغول في أثناء المعركة دون أن يشعر بذلك أحد. فلما أعاد المغول الكرة سحقوا المقاومين سحقاً، وأراد جغتاي أن يبيد بخارى ويحرقها ويدمرها تدميراً كما فعل أول مرة، ولكن الوزير المسلم محمود

يلواج الخوارزمي استطاع أن يستصدر عفواً عن أهل بخارى من القاآن (الخان الأعظم) أوكداي فاضطر جغتاي أن يقبل ذلك على مضض، ولكنه طرد محمود يلواج من وظيفته فنقله القاآن ليكون وزيره في الصين وجعل ابنه مسعود بيك مكانه.

وفي عهد جغتاي لم يكن باستطاعة أي مسلم أن يذبح الماشية إلا سراً، وقد يتعرض للعقاب الشديد إذا اكتشف أمره، واضطر كثير من المسلمين إلى أكل الحيوانات التي كانت تقتل ببقر البطن (شق البطن) دون أن تذبح خوفاً من بطش جغتاي، وهو ما يعتبره المسلمون ميتة، كما أن أحداً لم يكن يُسمح له بالوضوء من الأنهار ومصادر المياه.

وقد توفي جغتاي بعد وفاة أخيه القاآن أوكداي ببضعة أشهر (٦٣٩هـ/١٢٤٢م).

٣ـ **أوكداي (أوكتاي)** : هو ثالث الأبناء وأكثرهم حسن سياسة وإدراك وقدرة على تماسك البيت المغولي، لهذا توسم فيه والده هذه الخصال فأوصى بأن يكون هو القاآن (أي الخان الأعظم) الذي يخضع له جميع الأمراء وقادة الجيوش باعتباره القائد الأعلى لهذه الإمبراطورية وكان مقره في قراقوم عاصمة منغوليا والإمبراطورية.

وينقل بارتولد عن كتاب "تاريخ المغول السري" (ترجمة إلى الروسية كفاروف) أن أوكداي قال "إن مليكنا جنكيز خان قد أقام أسس بيتنا بجهد جبار، أما مهمتنا الآن فهي تحقيق السلام والرفاهية لأفراد الشعب والرعايا"[٤]

وبالفعل حقق أوكداي الرفاهية، والسلام إلى حد كبير لرعاياه طوال فترة حكمه التي امتدت ١٣سنة. (من سنة ٦٢٦هـ إلى سنة ٦٣٩هـ/١٢٢٩م-١٢٤٢م).

ولاشك أن المؤرخين المسلمين كانوا يثنون على أوكداي ثناءً عاطراً لحسن معاملته للمسلمين. وكان المؤرخ الجويني يرى أن القاآن يفضل الإسلام على الأديان الأخرى، وإن كان يعامل أتباع جميع الملل باحترام. وقد كان أوكداي يحمي المسلمين من كيد أعدائهم الصينيين (البوذيين) والنصارى والأيغور، وقد أورد

[٤] بارتولد. التركستان. مصدر سابق ص٦٤٩، ٦٥٠

دوسون أن أحد الأويغور حاول أن يفرض الوثنية (الشامانية) على أحد المسلمين، فما كان من القاآن إلا أن أمر بضرب الايغوري مائة عصا في السوق، وأن تُسلّم زوجته ومنزله للمسلم.[٥]

وقد حمى أوكتاي المسلمين من بطش جغتاي بعد أن فشلت ثورة تارابي في بخارى وعفى عنهم وذلك بواسطة وزيره المسلم الهمام محمود يلواج الخوارزمي، كما حماهم من وشايات جغتاي التي كان يسرّ بها مع بعض الرهبان البوذيين ليثيروا حنق القاآن على المسلمين، فكان الأمر ينفضح ويقوم أوكداي بحماية المسلمين من كيدهم وبطشهم. وقد ضبط أوكداي أمور الدولة ودخلها وخراجها لأنه كان يولي الإدارات الأكفاء من الصينيين والمسلمين.

محمود يلواج : وكان أعظم وزرائه وأنبلهم محمود يلواج الخوارزمي وقد مدحه المؤرخون والكتاب والمسلمون، وأثنوا عليه ثناء عاطراً لحكمته ودرايته ولحمايته المسلمين من بطش جغتاي وغيره، ولإعادته بناء بخارى وخوارزم وجميع مدن ما وراء النهر والتركستان حتى كادت أن تصل إلى رونقها القديم بعد ١٥ سنة فقط من دمارها التام على يد جنكيز خان وجنوده.

يقول عنه ابن الفوطي في مجمع الآداب[٦] أنه "مدار الملك في المشرق وإليه تدبير ممالك التركستان وبلاد الخطا، وما وراء النهر، وخوارزم،" وكان مع هذا الحكم والدها كاتباً سديداً يكتب بالمغولية والايغورية والتركية، والفارسية، ويتكلم بالخطائية والهندية والعربية، وكان غاية في الفهم والذكاء والمعرفة وبتدبيره انتظم للمغول ملكهم".

وقد وصفه جمال قرشي[٧] بأنه أعدل وزراء الخواقين، ضابط الممالك، حارس أهل الإسلام من المهالك كما مدح ابنه مسعود بيك الذي تولى الوزارة أيضاً في زمن أبيه وبعده، واستمرت الوزارة في ذرية محمود يلواج فنفع الله بهم العباد والبلاد، وأنقذ

---

[٥] المصدر السابق

[٦] ابن الفوطي مجمع الآداب ج٤ ٢٩٨ طبعة مصطفى جواد

[٧] كما ينقله بارتولد في التركستان ص ٦٥٤ ، ٦٥٥

المسلمين من براثن البطش والفساد، وكان لهم دور عظيم في بناء المساجد والمدارس الكبرى في كل مدن ما وراء النهر والتركستان وغيرها، وشجعوا العلماء والأدباء والدعاة إلى الله من الصوفية وغيرهم حتى استطاعوا أن يكسبوا الآلاف من المغول وغيرهم إلى نور الإسلام.

ويثني الجويني ثناء عاطراً على المعاهد والمدارس الكبرى التي شيدت على عهد محمود يلواج وابنه مسعود بيك، ويخص بالذكر المدرسة الخانية التي بنيت على نفقة الملكة سورققتي بيكي (أرملة تولي). وقد كانت أميرة عاقلة حصيفة وبعد وفاة زوجها (تولي)، عرض عليها القاآن أوكداي أن يزوجها من ابنه كيوك، ولكنها اعتذرت بلباقة وأنها تريد أن تتفرغ لتربية أبناءها على المحبة والمودة والشجاعة والإقدام وحسن التدبير. ورغم أن هذه المرأة كانت نصرانية إلا أنها كانت تعطف على المسلمين بصفة خاصة، وقد قامت تحت تأثير محمود يلواج وابنه مسعود ببناء مدرسة إسلامية عظيمة وأوكلت التدريس فيها إلى الشيخ الإمام المجاهد الصوفي سيف الدين باخرزي الذي كانت توقره وتحترمه.

واستطاع محمود يلواج أيضاً أن يتقرب إلى أرملة جوجي وإلى أبنائها باتوا وبركة خان الذين كانا يعطفان على المسلمين. ثم ما لبث بركة خان أن اعتنق الإسلام، فكان بذلك أول أمير من بيت جنكيز خان يعتنق الإسلام ويقال أن مبارك شاه حفيد جغتاي كان أول من أسلم من أمراء المغول، فكان بذلك الإسلام فتحاً للإسلام والمسلمين. وقد تولى عرش بيت جغتاي سنة ١٢٦٤م.

ولاشك أن بركة خان يكبر مبارك شاه وأنه قد سبقه إلى الإسلام ودوره أكثر بروزاً وقوة في تثبيت أركان الإسلام في تلك الدولة العتيدة، وسنتحدث عنهما بعد إكمال الحديث عن أبناء جنكيز خان.

٤ـ **تولي بن جنكيز خان** : هو أصغر الأبناء الأربعة وأكثرهم حنكة عسكرية وأقدرهم على وضع الخطط والقتال، وهو فاتح الصين، هو وأبناؤه وبالذات قوبلاي الذي

فتح إمبراطورية جنوب الصين ووحّدها تحت حكمه. وقـــد تـــأثر تـــولي وأولاده بالحضارة الصينية، وخاصة قوبلاي الذي تحول إلى إمبراطور صيني تقريباً. وقد تميزت أرملة تولي سورقفتني بيكي المسيحية، بالذكاء والفطنة والعطف على المسلمين كما أسلفنا، والتي بنت مدرسة إسلامية عظيمة في بخارى على نفقتها.

أحفاد جنكيز خان

بعد وفاة أوكداي (٦٣٩هـ/١٢٤٢م) اضطربت الأمور في قراقوم، عاصمة الدولة المغولية، واتفق الأمراء والقادة على أن تتولى الأمور أرملة أوكداي الملكة (توراكينا) لحين اجتماع القوريلتاي (المجلس الاستشاري الأعلى الذي يعين القآن) وقد ظل عرش المغول خالياً لمدة أربع سنوات قبل أن ينتخب كيوك بن أوكداي خانا أعظم (قآن) للمغول، وفي تلك الفترة حدثت إعدامات ومؤامرات كثيرة بين الأمراء، وتم إعدام أحد أخوة جنكيز خان "أوجكين" "Otchigin" الذي قام بمحاولة انقلابية للاستيلاء على العرش أثناء خلوّه.

القآن كيوك بن أوكداي (٦٤٤-٦٤٧هـ/١٢٤٦-١٢٤٩م) : لم يتصف كيوك بأخلاق أبيه الحميدة غير أن القآن الجديد أثبت جميع القوانين التي صدرت في عهد أبيه (أوكداي) وجده (جنكيز خان) وكان القآن الجديد يثني على أرملة تولي (سورقتني بيكي) وأولادها لأنهم من بين سائر الأمراء استمسكوا بالياسا وامتنعوا عن كل تصرف طائش خلال فترة خلو العرش.

وكان كيوك يميل ميلاً شديداً إلى النصارى، فأمه نصرانية ومربية ومعلمة قداق (Qadaq) نصراني وكبير وزرائه جينغاي (الاويغوري) الداهية نصراني أيضاً، وقد ترك كيوك تدبير كثير من أمور الدولة لوزيره وأستاذه وانشغل هو بالخمر والنساء.

ورغم ذلك فقد استمر محمود يلواج في تدبير شؤون الصين وما حولها كما استمر ابنه مسعود بيك في تدبير شؤون التركستان وبلاد ما بين النهرين.

وفي عهد كيوك تقاطر النصارى من كل حدب وصوب إلى عرش القآن وأنفذ البابا سفارتين إلى منغوليا : الأولى برئاسة الراهب الفرنسسكاني "يوحنا بلاك كاربين"، والتي وصلت إلى قراقوم في أغسطس ١٢٤٦م والثانية برئاسة الراهب الدومنيكاني "اسكين اللومباردي" والتي وصلت إلى تبريز في مايو ١٢٤٧م للقاء القائد المغولي "بايجو" (بايغو)

الذي أبدى استعداداً لإقامة تحالف ضد المسلمين (الأيوبيين في ذلك الوقت). وقد اســتغل المسيحيون هذا الوضع في مهاجمة المسلمين دون أن يستطيع المسلمون الرد عليهم وقد أدى الانغماس في الخمر إلى وفاة كيوك المفاجئة سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م ولم يحكم سوى ثلاث سنوات.

القآن مونكو بن تولى (٦٤٨-٦٥٥هـ/١٢٥٠-١٢٥٧م) : أدت وفاة كيــون إلى اضطرابات أخرى في بيت جنكيز خان، وتولت أرملته الحكم على عاد المغول حتى يتم اجتماع القوريلتاي الذي ينتخب القآن الجديد.

وكان باتوبن جوجي أكبر من بقي من بيت جنكيز خان ويتمتع باحترام شديد لما له من فتوحات في القوقاز وروسيا ..الخ وبما يتمتع به م رجاحة العقل. واجتمــع القوريلتــاي واستطاع بالتعاون مع أرملة تولي "الملكة سورقتني بيكي" أن يرشح ابنها مونكو لعــرش القآن.

وقد تمت إعدامات كثيرة بسبب المؤامرات في البيت المغولي الحاكم، وأعاد مونكو مقاليد الأمور في بيت جغتاي إلى يد قراهولاكو بن موتكن بن جغتاي، وتمّ قتل عمه يــسومنكو كما تم تعيين "أورغاناخاتون" حاكمة مؤقتة على ألوس جغتاي باسم ابنها الطفل مبــارك شاه الذي يعتبر أول من أسلم من بيت جغتاي (وتذكر بعض المصادر أنه أول من أسلم من بيت جنكيز خان).

وقد تميز مونكو بالذكاء والحنكة السياسية كما ورث من أبيه الشجاعة والإقدام، وبما أن أمه كانت نصرانية فإن نفوذ المسيحيين كان أقوى من نفوذ غيرهم، رغم أنه بقي شــامانيا متسامحاً مع جميع الأديان، بل كان كل فريق يدّعي أنه من أتباعه. فهيتون النصراني، يزعم أن مونكو قد تم تعميده، بينما يقول الجوزجاني أن مونكو نطق بالشهادتين عند اعتلائــه العرش تحت إلحاح بركة خان بن جوجي، بينما يرى البوذيون أن تبع ديانتــهم[٨]. وسمــح للمسلمين بذبح المواشي على طريقتهم، بل تم ذبحها على الطريقة الإســلامية في قــصره لضيوفه المسلمين عند حضور مأدبة اعتلائه العرش.

---

[٨] بارتولد التركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ص ٦٨٦

وقد قام مونكوا بإصلاحات إدارية وسياسية وأصلح نظام الضرائب المتعسف، وقضى على نفوذ بيتي جغتاي وأوكداي ما عدا من انضموا عليه.

ووسع مونكو أرجاء مملكته وولى أخاه الأصغر هولاكو قيادة الجيوش لإخضاع الإسماعيلية الذين يسميهم المسلمون من أهل السنة، الملاحدة، ويسميهم الغربيون الأساسيين Assasin وهي كلمة محرفة من الحشاشين، وصارت لفظة أساسين تعني الإرهابي الذي يقوم بالاغتيالات. وكان مركزهم شمال إيران جنوب بحر قزوين ومن أشهر قلاعهم قلعة الموت فقضى عليهم هولاكو قضاءً تاماً سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م.

وكان المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين في بغداد (٦٤٠-٦٥٦هـ/١٢٢٤-١٢٥٨م) ضعيف الرأي، غير مطلع على حقائق زمانه، يقضي جُلّ وقته في استماع الأغاني من جواريه، ويعتمد في تدبير شؤون مملكته على وزيره الشيعي ابن العلقمي وقائد جيشه مجاهد الدين ايبك الدوتدار السني.

وقد كان ابن العلقمي يحقد على السنة وعلى الخليفة المستعصم لأن الخليفة سمح لابنه أبي بكر بأن يهجم على الكرخ (حي في بغداد يسكنه الشيعة) ويقضي على الشيعة هناك، وكاتب ابن العلقمي هولاكو وشجعه على غزو بغداد وتآمر معه ضد وطنه وخليفته والمسلمين.

والمشكلة الكبرى أن الخليفة العباسي السابق كان قد راسل جنكيز خان يحثه على الهجوم على علاء الدين محمد خوارزمشاه، سلطان الدولة الخوارزمية الباذخة، لأنه حارب الخليفة وتحول من المذهب السني إلى المذهب الشيعي الجعفري، فكان بذلك السبب الأول في تدمير دول الإسلام والمسلمين وما حلّ بهم من نكبات، كما أن هذا الخليفة العباسي راسل الإسماعيلية (الملاحدة) وأغراهم بالهجوم على علاء الدين خوارزم شاه الذي أصبح عدوه الأول، ومن أجل محاربته تحالف الخليفة العباسي نفسه مع الشيطان.. فتكرر الوضع وتآمر الشيعة ممثلين في ابن العلقمي، وزير الخليفة العباسي والخواجه نصير الله الطوسي، مستشار

هولاكو، وأدى ذلك إلى انهيار الخلافة العباسية وحصول الخراب الذي لم يشهد مثله التاريخ.

وانزاحت قوات هولاكو بعد خراب بغداد لا يردها شيء فوصلت إلى الشام (سوريا الكبرى) واحتلت دمشق وحلب وفلسطين وبدأت تهدد مباشرة آخر القلاع الإسلامية في مصر وأرسل هولاكو رسائل التهديد والوعيد للسلطان قطز بأن يستسلم وإلا فالهلاك والدمار سيكون عاقبته، ولكن الله أنقذ المسلمين من ذلك الدمار والهلاك.

وتمثل ذلك الإنقاذ الرباني بالآتي :

١ـ موت القآن مونكو (٦٥٥هـ/١٢٥٧م) وحدوث خلاف شديد في ولاية العرش كما هو معتاد. وكان الخلاف بين أخوي مونكو حيث رشح عدد من الأمراء أريق بوكا للحكم ومنهم بركة خان، بينما رفض قوبيلاي ذلك وطالب بالعرش لنفسه. وكان هولاكو يرى أن أخاه قوبلاي هو الأجدر بالحكم فذهب بجيشه كله ليدعم قوبلاي وليحضر القوريلتاي (مجلس الشورى الأعلى لاختيار القآن).

٢ـ اعتناق بركة خان للإسلام ومحاربته لهولاكو من أجله.

٣ـ ثورة أبناء جغتاي في مناطقهم ومحاربتهم لأبناء تولي.

فلما انسحب الجيش العرمرم، ويقدرون بأربعمائة ألف، مع هولاكو للعودة إلى إيران والتركستان ارتفعت معنويات المسلمين في مصر، واستعدوا للقاء المغول.

كما أن انسحاب المغول قد أدى إلى فتور الحماس المسيحي وخاصة الإمارات الصغيرة الموجودة في فلسطين فسالمت قوات قطز وبيبرس، بل وأعلن بعضهم استعدادهم للقتال مع المسلمين ضد المغول، ولكن بيبرس شكرهم على ذلك وطلب منهم أن يقفوا فقط على الحياد.

وقد استعد قطز استعداداً حسناً، وأرسل العيون، وراسل الأمراء من البيت الأيوبي الموجودين في سوريا وبذل لهم كل ما يريدون بما في ذلك عودتهم لحكم مصر، فتشجع هؤلاء. وأرسل جيشه وبث العيون والأرصاد، ودخل الحرب عازماً على الجهاد حتى النصر

أو الشهادة فرزقه الله النصر المبين في المعركة الخالدة عين جالوت التي تمت في ١٥ رمضان سنة ٦٥٨هـ/٣ سبتمبر ١٢٦٠م. وقد أبدى كتبغا قائد المغول ضروباً من الشجاعة حتى أسر ثم قتل، وكان بذلك نهاية المد المغولي وبداية انتشار الإسلام في أورد هولاكو.

وتحررت مصر والشام (سوريا الكبرى) من المغول وانتقم الأهالي من نصارى دمشق وغيرها الذين مالئوا المغول وأذلوا المسلمين، ولكن حكام المسلمين منعوهم من التمادي في ذلك وأعادوا الأمور إلى نصابها.

وفي زمن مونكو ضعف أمر بيت جغتاي، وتولت أورقنه خاتون (أوركينا خاتون) الحكم في بيت جغتاي باسم ابنها مبارك شاه الطفل، الذي كان حسب قول بارتولد ودائر المعارف الإسلامية أول من أسلم من أمراء المغول[٩]، ورغم أنها كانت بوذية إلا أنها بسطت حمايتها للمسلمين.

وفي عام ١٢٦٤م مات (ألغو) وأجلست أورقنه خاتون ابنها مبارك شاه على عرش آل جغتاي، وقد أدى ذلك إلى تأجج الصراع بين من اتبعوا الإسلام من أمراء المغول وبين من تنصروا.

فقد كان سرتاق بن باتو بن جوجي مسيحياً وقد جعله العبري شماساً (قسيساً) ويورد ورتان أن أدخل في العقيدة المسيحية جماعات من شعبه[١٠]، ولكن روبروك الذي زار سرتاق سنة ١٢٥٣م قال إنه يعطف على المسيحيين ولكنه ليس مسيحياً. وكان لسرتاق ست زوجات في آن واحد.

ويؤكد جوزجاني أن سرتاق تحوّل إلى النصرانية، وأنه كان ضد عمه بركة خان بن جوجي الذي أعلن إسلامه وقال له : أنت مسلم وأنا نصراني، وإني لأتطيّر برية وجه مسلم ومات سرتاق بعد ذلك بقليل، ويرى كيراكوس أن سرتاق قد سمّه أقاربه المسلمون غضباً لإهانته بركة خان.

---

[٩] بارتولد التركستان ص٦٩٠، دائرة المعارف الإسلامية ج٣ ٤٨٩

[١٠] بارتولد ص ٦٩٢

وبعد موت سرتاق جعل أمراء بيت جوجي (الأورد الذهبي) أرملة باتو المدعوة براقجين خاتون Boraqghin حاكمة على هذا البيت وأراضيهم، وعيّنوا طفلاً هو أولاغجي Ulagchi ابن باتو رئيساً للأورد، ولكنه مات في نفس العام ١٢٥٧م فتولى بركة خان أمر الأورد الذهبي، وبموت مونكو القاآن في نفس العام ١٢٥٧م توطدت مكانة بركة خان على الأورد الذهبي، ولعب دوراً كبيراً في البيت المغولي، وبدأ نفوذ النصارى في الانحسار كما بدأ صعود النفوذ الإسلامي لدى المغول.

بركة خان بن جوجي بن جنكيز خان (أول من أسلم من أمراء المغول – إسلامه ٦٤٠هـ/١٢٤٢م ووفاته ٦٦٥هـ،١٢٦٧م)[11] : بركة خان هو ثالث أبناء جوجي.. يصغر باتو بأعوام قلائل، ولا نعرف عن سيرته قبل أن يرقى العرش (بيت جوجي) إلا القليل، و لم يشترك بركة في الحروب التي نشبت في روسيا (١٢٣٤-١٢٤٢م) وكان يتردد على بلاد المغول أكثر مما يفعل أخوه باتو، واشترك في القورلتاي الذي عقد عام ٦٤٤هـ ١٢٤٦م بمناسبة تتويج كيوك قاآنا، وتتويج منكو عام ٦٤٩هـ ١٢٥١م ورأس بركة المجلس الأخير باعتباره أسنّ الحاضرين من البيت الممالك، كما كان له شأن كبير في محاكمة أحفاد جغتاي وأوكداي، حتى أن ألغا[12] حفيد جغتاي، جعل بركة خان المسؤول وحده عما حلّ بأهل بيته (أي بيت جغتاي) من النكبات.

ويصف ربروكيس في يومياته عام ٦٥١هـ/١٢٥٣م معسكر بركة خان، وأنه لم يكن يسمح بأكل الخنزير في معسكره.

ويقول الجوزجاني في كتابه طبقات ناصري (ص١٢٨٤) أن بركة درس القرآن في حداثته بقوقند على فقيه من أهل هذه المدين ويروي الجوزجاني في موضع آخر من كتابه (ص١٢٩) قصة الكراهية التي كان يضمرها سرتاق بن باتو بن جنكيز خان، بصفته نصرانياً، لعمه بركة خان المسلم، ويزعم الأرمني كيراكوس أن بركة خان دسّ السم لابن أخيه.

---

[11] نقلاً عن دائرة المعارف الإسلامية ترجمة أحمد الشفنتاوي وإبراهيم خورشيد وعبد الحميد يونس ج٣ ٥٦٤-٥٦٨ التي كتبها وحررها بارتولد
[12] تكتب أيضاً أولغا (أولجا)

ويقول بارتولد كاتب هذه المادة في دائرة المعارف الإسلامية أن عاصمة بركة خان كانت مقر أسقف نصراني عام ١٢٦١م، مما يدل على سماحته مع الأديان الأخرى.

ويقول الجويني أن القاآن منكو قد جعل سرتاق بن باتو خلفاً لوالده في ممتلكاته، ونصبه أميراً على بيت جوجي، وأول أمير في الدول كلها بعد القاآن (أي أخذ منصب والد باتو) ولكن سرتاق توفي بعيد ذلك بقليل، وذلك عام ٦٥٣هـ/١٢٥٦م (يقال أنه سُمّ).

وكان بركة يحكم بلاد (الأورد الذهبي) وهي منطقة روسيا وحوض نهر الفولجا وبلاد البلغار كما كان بالإضافة إلى ذلك يحكم بلاد ما وراء النهر (والمقصود نهر جيحون أموداريا) وهي أرض التركستان، بعد أن بطش بالأمراء من بيت جغتاي.

ويقول الجوزجاني أن بركة خان زار بخارى وأظهر تبجيله لعلمائها، وأنه أمر أن يعاقب نصارى سمرقند لاعتدائهم على مواطنيهم من المسلمين (وهدمهم دور العبادة لهم) فأمر بأن تهدم كنيستهم (جزاءً وفاقاً) ويقول كتاب أضواء على تاريخ توران "للسيد عبد المؤمن (من بقايا أمراء بخارى) أن بركة خان عندما وصل بخارى لزيارة الشيخ سيف الدين الباخرزي سنة ٦٤٠هـ ١٢٤٢م قبل يد الشيخ وأعلن إسلامه.

وعندما مات القاآن منكو عام ١٢٥٩م جعلت الخطبة لبركة خان في ما وراء النهر وخراسان وولايات فارس الأخرى (طبقات ناصري ص ١٢٩٢) وفي خلال السنوات الأربع التالية (١٢٦٠-١٢٦٤م) اشتدت المعارك بين أبناء منكو وهما قبلاي وأريغ بوغا، وقد أيد بركة خان أيريغ بوغا (بوكا).

ثم ظهر أمير من بيت جغتاي هو أولغا الذي استطاع أن يضم بلاد جده جغتاي إليه، ويضيف إليها خوارزم التي كانت تابعة لبيت جوجي وخلفائه. وقامت المعارك بين بركة وألغا، وقتل شطر من جيش بركة الأشداء في بخارى، وظلت الحرب قائمة بينهما حتى توفي بركة، وواصل الأمير قيدو حفيد أوكداي الحرب ضد ألغا حفيد جغتاي.

وقد استطاع بركة أن يخضع ثورة البولنديين واستقلال ملك غاليسا دانيال وذلك عام ١٢٥٧م، ولم يحتج بركة إلى أن يحضر بنفسه إلى ميدان القتال من بلاد ما وراء النهر وإنما قام بذلك قواده بالمهمة بنجاح.

الحرب بين بركة خان وهولاكو[١٣] :

أما الحرب بين بركة وابن عمه هولاكو فاتح بلاد فارس فقد كانت أهم من الحروب التي سبقتها، وإن كان بركة فيها أقل توفيقاً، وقد قام بركة بتعنيف هولاكو تعنيفاً شديداً على تخريبه ديار الإسلام، وخاصة بغداد، وقتله الخليفة العباسي المستعصم الذي استسلم لهولاكو دون قتال، وبدأت المعارك بين بركة خان وهولاكو وانتصر بركة خان في أولى تلك المعارك ووصل إلى نهر ترك سنة ٦٦٠هـ (في نوفمبر – ديسمبر عام ١٢٦٢م) وفقد هولاكو شطراً كبيراً من جيشه أثناء تقهقره، وهلك كثيرون في نهر ترك وكان الثلج الذي يغطيه يتكسر تحت سنابك الخيل، ولم يحضر بركة بنفسه هذه الوقعة.

وذبح هولاكو التجار المسلمين من مملكة بركة خان كما رد بركة بقتل تجار هولاكو.

علاقة بركة خان بالظاهر بيبرس :

وقد بعث الظاهر بيبرس برسالة من القاهرة عام ٦٦٠هـ (١٢٦١-١٢٦٢) إلى بركة خان للتعاون ضد هولاكو الذي يمثل خطراً ماحقاً ضد الإسلام والمسلمين وفي المحرم عام ٦٦١هـ ديسمبر ١٢٦٢م ذهبت بعثة من القاهرة إلى بركة. وفي ربيع ١٢٦٣م وصلت بعثة من بركة خان إلى القاهرة قبل أن ترجع البعثة التي أوفدها بيبرس، ووصف الرسل المصرين بركة خان بأنه خفيف اللحية كبير الوجه، في لونه صفرة ويلبس في وسطه سيفاً وفي أذنه حلقة ذهب فيها جوهرة ثمينة، وعليه قباء خطائي، ويقال أن عمره آنذاك كان ٥٦ عاماً ويعاني من وجع النقرس مثل أخيه باتو.

وفي عام ٦٦٤هـ/١٢٦٦م استأنف بركة الحرب ضد ايلخانية فارس التي كان يحكمها في ذلك الوقت أباقا الذي خلف هولاكو، غير أن هذه الحرب لم تؤد إلى نتيجة، ومات بركة خان عام ٦٦٥هـ ١٢٦٧م حسب المصادر المصرية بينما تقول الحوليات الروسية أن

[١٣] بارتولد التركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ص ٧٠٢ ـ ٧٠٤

توفي ما بين سبتمبر ١٢٦٥ وسبتمبر ١٢٦٦ وبوفاة بركة انسحب جيشه إلى بلاده ولم تتم المعارك بين الجيشين العدوين.

ولم يعب بركة ذرية فآل العرش إلى منكو تيمور حفيد باتو وقد أقام بركة خان دولة مستقلة عن دولة القاآن وعن بقية المغول.

وتتحدث المصادر المصرية عن بركة خان أنه أقام عدة مدارس لتعليم القرآن الكريم، وأنه كان له ولجيشه إمام ومؤذن كما كان لكل زوجة من زوجاته ولكل أمير من أمراء بيته إمام ومؤذن.

وقد اعتنق الإسلام عدد من إخوته بجهوده كما اعتنقه بعض قواد جيشه، ولكن الإسلام لم يسد في مملكته إلا بعد وفاته بنصف قرن. وجعل بركة خان عاصمته السراي التي أسسها باتوا وأصبحت مدينة عامرة وكبيرة في عهده.

وقد أسلمت زوجة بركة خان ليجيك خاتوي واتخذت مسجداً من الخيم كانت تسافر به ولها مؤذن وإمام كما كان لزوجاته الأخريات أيضاً مؤذن وإمام، وكان بركة خان منذ إعلان إسلامه سنة ٦٤٠هـ/١٢٦٧م حتى وفاته سنة ٦٦٥هـ/١٢٨٢م يحافظ على إقامة الصلوات في أوقاتها جماعة، وله مؤذن وإمام خاص، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

الوزراء المسلمون الذين تولوا شؤون الدولة في عهد جنكيز خان وأولاده :

١ــ محمود يلواج الخوارزمي : وهو أهم شخصية إسلامية في عهد جنكيز خان وأبنائـــه، وقد تولى السفارة لجنكيز خان عدة مرات ومنها سفارته إلى السلطان عـــلاء الـــدين محمد الخوارزمي (سلطان الدولة الخوارزمية) ثم تولى الوزارة في عهد أوكداي وقـــد أسلفنا في شرح دوره الهام في الحفاظ على المسلمين وإنقاذهم من الدمار، وإعادة بناء بخارى وخوارزم وخجنده وترمذ وسمرقند ..الخ وتوفي سنة ٦٥٢هـــ.

٢ــ مسعود بيك بن محمود يلواج الخوارزمي : وتولى الوزارة عندما تحـــول والـــده إلى حكم الصين وتنظيم شؤونها فتولى جميع بلاد مـــا وراء النـــهر (جيحـــون) وبـــلاد التركستان وخراسان والخطا ..الخ وقد أحسن الإدارة ونفع الله به الإسلام والمسلمين وتوفي سنة ٦٨٨هـــ.

٣ــ مسعود الثاني أبو بكر بن مسعود يلواج : وتولى الوزارة من سنة ٦٨٩هـــ إلى حين وفاته سنة ٦٩٧.

٤ــ ستلمش (مسعود الثالث) ابن مسعود يلواج : تولى الوزارة بعد وفاة أخيه وتـــوفي سنة ٧٠٢هـــ.

٥ــ سيونج (مسعود الرابع) ابن مسعود يلواج : وتولى الوزارة بعد وفاة أخيه ستلمش.

٦ــ قطب الدين حبش عميد : التحق بخدمة المغول منذ أيام فتحهم لبلاد ما وراء النـــهر وترقى في خدمة جغتاي وبلغ عنده مكانة كبيرة حتى صار وزيره، ولكن لم تُعـــرف لحبش عميد غيرة خاصة على الإسلام، ولم يدافع عن المسلمين حتى أن العالم الداعية إلى الله الصوفي سيف الدين باخرزي بعث له رسالة يوبخه على تقـــصيره في خدمـــة المسلمين وفيها يقول : "بما أن ربّ العزة قد أوكل إليك في هذه الدولة أن تنصر الحقَّ فماذا سيكون عذرك يوم الحشر إذا أنت لم تقم بذلك" ؟ وفي ملتنا الإسلامية، نصرها الباري إلى يوم الدين شروط الرياسة ثلاثة : هي العلم والسن والإســـلام، فـــإذا أراد شاب لا خبرة له (ولا علم) أن يتولى الرياسة فإنه في نظر العقلاء لا يعيب المسنين أن

يحرموا منها وقد أغلظ الشيخ باخرزي رحمه الله له القول[١٤] ثم وزر حبش عميد لقراهولاكو حفيد جغتاي.

٧ــ **بهاء الدين مرغيناني** : وكان من أسرة دينية تولت مشيخة الإسلام في فرغانه، وكان هو عالماً فاضلاً تولى الوزارة في عهد ييسومونكو (مونككا) بن جغتاي، فلما مات عاد الأمر إلى قراهولاكو وتولى الوزارة حبش عميد الذي بطش ببهاء الدين مرغيناني الذي أنقذ حبش عميد من بطش ييسومونكو.

٨ــ **السيد الأجل البخاري** : أصله من إيران تولى الوزارة في الصين بعد وفاة محمود يلواج من سنة ٦٥٨هــ/١٢٥٩م وظل في الوزارة خمسة وعشرين عاماً حتى سنة ٦٨٣هــ ١٢٨٤م وكلها في عهد قوبلاي خان الذي امتد حكمه من سنة ٦٥٨هــ إلى سنة ٦٩٣هــ / ١٢٦٠-١٢٩٤م وقد قام بالوزارة على خير وجه، وقام بتنظيم الدولة تنظيماً دقيقاً، وفي عهده تم التعامل بالعملة الورقية المعروفة بالجاو التي كانت مغطاة بالذهب والفضة. وقد تولى ابن السيد الأجل ناصر الدين حكم ولاية قراجانك نائباً عن والده.

٩ــ **أحمد البناكتي** : وهو أيضاً إيراني تولى الوزارة بعد السيد الأجل ولكنه للأسف لم يكن في كفاءة ولا أمانة السيد الأجل البخاري ذي السمعة الحسنة، وقد كان قوبلاي القاآن يثق في أحمد البناكتي، ولكن ابن القاآن (جيم كيم) دبر له المكايد واغتاله فأمر القاآن قوبلاي بتكريمه ميتاً وأقام له جنازة كبيرة، وعندما بحث القاآن عن جوهرة ثمينة جداً كانت في خزانة الدولة وجدها في بيت وزيره أحمد البناكتي الذي سرقها فأدى ذلك إلى غضب القاآن وإخراج الجثة وصلبها.

وولى بعدها القاآن قوبلاي منصب الوزارة لرجل من الأويغور اسمه سنكه وكان متضامناً مع البوذيين والمسيحيين في إيذاء المسلمين.

[١٤] الجويني (علاء الدين عطا ملك) تاريخ جهانكشكاي ج١ ١٩٧

وهكذا نرى الوزراء الأكفاء والأمناء يخدمون الإسلام والمسلمين، والوزراء الخونة من المسلمين ينتهي بهم الأمر إلى الإهانة أحياء وأمواتاً، وإلى تكريس الأذى للمسلمين.

ذكر من أسلم من أحفاد جنكيز خان :

١ـــ بركة خان بن جوجي بن جنكيز خان : وقد سبق الكلام عنه وافياً.

٢ـــ مبارك شاه حفيد جغتاي : وكان أول من أسلم من بيت جغتاي وتولى الحكم سنة ١٢٦٤م وقد سبق عنه الحديث باقتضاب.

٣ـــ ايلخانية فارس : كان أول من أسلم هو أحمد تيكودار (تكودر) بن هولاكو بن تولي ابن جنكيز خان. حكم فارس من سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م إلى سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م وتقول دائرة المعارف الإسلامية[١٥] أنه قد عُمِّد في شبابه وأُطلق عليه اسم نيقولاس، ولكنها تشكك في هذه الرواية. وقد دخل الإسلام عقب اعتلائه العرش مباشرة وكان بلاد هولاكو وأبناؤه لا يزالون معادين للإسلام فأباقا الابن الأكبر لهولاكو كان قد تنصّر وتولى الحكم بعد أبيه هولاكو، وكان بقية بيت هولاكو والأمراء إما شامانيين أو نصارى أو بوذيين، وجميعهم يكرهون الإسلام.

ويقول ابن العبري أن تكودر كان متسامحاً مع جميع الأديان، وخاصة النصرانية، بينما تقول مصادر أخرى أنه حول المعابد الوثنية والكنائس إلى مساجد[١٦] وكان إسلامه أساساً لمفاوضاته مع مصر وإيجاد روابط ودية بين الدولتين.

وقد قام أرغون ابن أباقابن هولاكو (ابن أخ تكودر) بالثورة عليه بسبب إسلامه وذلك سنة ١٢٨٤م ولكن قائد أحمد تكودر هزمه فاضطر للتسليم في قلعة قلات، وأحضر إلى معسكر عمه، بيد أن الأمير بوكاي أطلق سراحه، وسرعان ما انضمت جنود بوكاي، وجنود أحمد تكودار نفسه الذين نقموا عليه إسلامه فانهزم أحمد تكودر وسلم نفسه لابن أخيه المتعصب الذي أمر بقتله وذلك في ٢٦ جمادى الأولى ٦٨٣هـ/١٠ أغسطس ١٢٨٤م. وفي ذلك اليوم احتفل أرغون باعتلائه العرش،

---

١٥ دائرة المعارف الإسلامية ترجمة أحمد الشنتاوي وزملائه، دار المعرفة، بيروت ج٥ ٤٤٦ ، ٤٤٤

١٦ المصدر السابق

وثبته بعد ذلك (١٢٨٦م) القآن قوبلاي.[١٧] وتولى الوزارة اليهودي الملقب بسعد الدين الذي سارع إلى إيذاء المسلمين، كما أنه لم يكن محبوباً لدى شيوخ المغول وأمراء دولة أرغون، فلما مرض أرغون مرض موته انقضّ عليه هؤلاء وقتلوه.

وكان أرغون بوذياً ولكنه على علاقة وطيدة وحسنة بالنصارى، وراسله البابا وملوك أوربا لمحاربة المسلمين في مصر وإيجاد حلف ضدهم.

وقد أسلم[١٨] غازان بن أرغون نفسه وثبت إسلامه وفي عهده ثبت الإسلام في إيلخائية فارس واندحرت البوذية والشامانية والنصرانية كما أسلم أوليجاتو بن أرغون أيضاً، وهكذا تحولت إيلخائية فارس إلى رحاب الإسلام بفضل الله أولاً ثم بفضل الدعاة إلى الله من كافة الطبقات، وخاصة من الصوفية.

وهكذا نجد هولاكو عدواً للإسلام والمسلمين ثم نجد ابنه الأول أباقاً شديد العداوة لمواجهة المماليك في مصر، ولكن المماليك صمدوا وانتصروا على العدوين معاً، ثم ظهر الابن الثاني لهولاكو وهو أحمد تكودر الذي أسلم، واستشهد من أجل إسلامه فتولى الملك أرغون الحاقد على الإسلام والمسلمين، ثم تلاه ابنه غازان وابنه اليجاتو وكلاهما تحول إلى الإسلام، ومنذ ذلك الحين صار الإسلام هو دين إيلخانية فارس، وتحولوا إلى حماة للدين والثقافة الإسلامية وفي عهودهم قامت مدن جديدة في إيران وحضار باذخة.

وقد قامت دول إسلامية باذخة في حوض نهر الفولجا، والقفاق، والتركستان، وكان حكامها من أحفاد جنكيز خان، كما قامت دول أخرى تمت بنسب من جهة الأم إلى جنكيز خان مثل الدولة الباذخة التي أسسها تيمورلنك ومن بعده أحفاده حيث أسسوا الدولة التيمورية في الهند، ولا يمكننا دراسة هذه الدول كلها فهو أمر يحتاج إلى مجلدات ضخام. وسنكتفي هاهنا بالإشارة السريعة إلى بعض هذه الدول وأهم من

[١٧] دائرة المعارف الإسلامية ج١ ٦٢٦ ، ٦٢٧
[١٨] المصدر السابق ج١ ١٤ ، ١٥

ظهر منها، وسنركز الحديث على أحفاد جنكيز خان فقط، أما تميزرلنك الذي ينتسب إليه من جهة أمه فلن نتحدث عنه ولا عن أحفاده.

فرع جوجي بن جنكيز خان (الألوس الذهبي) :

أقام هذا الفرع منذ زمن باتور وبركة خان مملكة واسعة شملت روسيا وحوض نهر الفولجا بأكمله. والمناطق المحيطة ببحر قزوين، وخاصة من الشمال والشرق. بينما كانت سواحل بحر قزوين الجنوبية تابع لفرع هولاكو بن تولي بعد أن أقام فيها إيلخانية فارس.

وكان من هذه الأسرة السلطان محمد أوزبك الذي آل إليه أمرها سنة ٧١٣هـ/١٣١٣م واستمر في الحكم فترة طويلة حتى عام ٧٤١هـ/١٣٤٠م وقد زاره ابن بطوطة وسجل ذلك في رحلته المشهورة وقال عنه : "وهذا السلطان عظيم المملكة شديد القوة كبير الشأن، رفيع المكانة، قاهر لأعداء الله أهل قسطنطينية العظمى مجتهد في جهادهم، وبلاده متسعة ومدنه عظيمة منها الكفا والقرم والماجر وأراق وسرتاق وخوارزم وحاضرته السرا وهو أحد الملوك السبعة الذين هم كبار الدنيا وعظماؤها".

وفي القرن التاسع الهجري وبالتحديد في سنة ٨٤٢هـ تحولت أملاك القبيلة – الذهبية إلى عدة دويلات (خانيات) وهي :

١ــ **خانية استراخان** : في المنطقة شمال بحر قزوين حيث مصب نهر الفولجا.

٢ــ **خانية قازان** : وكانت تحكم ما يعرف اليوم بجمهورية تتارستان. ولا ينصب أمير موسكو إلا بعد أن يوافق عليه خان قازان.

٣ــ **خانية القرم** : وهي جزيرة القرم التي صارت اليوم من أملاك أوكرانيا.

٤ــ **إمارة قاسموف التترية الصغيرة** : أيضاً على ضفاف نهر الفولجا.

٥ــ **الشيبانيون** : وقد أسس الشيبانيون مملكة كبيرة في بخارى والتركستان وهم من فرع استراخان المعروفين بالاستتراخاينين وقد امتد سلطانهم ليشمل معظم بلا ما وراء النهر (أموداريا = جيحون) وعاشوا جنوب شرقي جبال الأورال المعروفة اليوم في قازاخستان، كما احتلوا الأراضي المعروفة بجمهورية أوزبكستان، وجعلوا عاصمتهم

بخارى، وأنهوا بذلك حكم التيموريين. واشتهر من هذه الأسرة عدد كبير من الحكام منهم أبو الخير الشيباني وفروع أخرى وصلت إلى أفغانستان وإيران.

فرع جغتاي : ظهر منه مبارك شاه حفيد جغتاي. ثم ظهر عدد منهم، أشهرهم طرمشرين الذي قال عنه ابن بطوطة ما يلي :

سلطان ما وراء النهر : وهو السلطان المعظم علاء الدين طرمشيرين، وهو عظيم المقـدار كثير الجيوش والعساكر، ضخم المملكة، شديد القوة، عادل الحكم.

ومن فضائل هذا الملك أنه حضرت صلاة العصر يوماً، ولم يحضر السلطان فجاء أحـد فتيانه بسجادة ووضعها قبالة المحراب، حيث جرت عادته أن يصلي وقال للإمـام حـسام الدين الياغي أن مولانا يريد أن تنتظره بالصلاة قليلاً ريثما يتوضأ، فقال الإمام : الصلاة لله أم لطرمشيرين ؟ ثم أمر المؤذن بإقامة الصلاة، وجاء السلطان وقد صلى الإمام منها ركعتان فصلى السلطان الركعتين الأخريين، حيث انتهى به المقام، وذلك في الموضع التي تكون فيه أنعلة الناس عند باب المسجد، وقضى ما فاته، وقام إلى الإمام ليصافحه وهـو يـضحك، وجلس قبالة المحراب، والشيخ إلى جانب وأنا جانب الإمام، فقال لي الإمام : إذا مشيت إلى بلادك فحدّث أن فقيراً من فقراء العجم يفعل هكذا مع سلطان الترك.

"وكان هذا الشيخ يعظ الناس في كل جمعة ويأمر السلطان بالمعروف وينهاه عن المنكـر والظلم ويغلظ له القول والسلطان ينصت لكلامه ويبكي.. وكان الشيخ لا يقبل من عطاء السلطان ولم يأكل من طعامه قط وقد قام هذا السلطان بإلغاء قوانين جنكيز خان المعروفة بالياسا والتي كان المغول يقدسونها، ولذا عندما ألغاها ثار عليه جنوده من المغول وقـاموا بعزله رغم أنهم قد دخل أكثرهم الإسلام.

الاشترخانيون والمنغيت :

وهؤلاء يرجعون إلى بيت قتلق تيمور وهو أيضاً من فرع جوجي، وقد اشتهر قتلق تيمور باستيلائه على خوارزم (خيوه) عام ٨٠٢هـ ١٣٩٩م وبانتصاره على البولنديين. وظهـر منهم عدد من الحكام المسلمين الأتقياء الذين تنازلوا عن الحكم طواعية ليتفرغوا للعبـادة

والنسك في المدينة المنورة، وممن فعل ذلك قلي خان سنة ١٠٥٠هـ/١٦٤٠م وعبد العزيز نظر خان الذي آثر العزلة على محاربة أخيه سبحان قلي.

وكان من فرع المنغيت الذين تولوا الوزارة للاشترخائيين، شاب صالح تقي يدعي معصوم لزم النسك وآداب الدين وزهد في الدنيا حتى لبس الخرقة وسار مع الصوفية، وعرضت عليه الوزارة فأباها، ولكن عندما حدثت فتنة كبيرة قادها يناز علي بك أمير شهر سبز ألحّ الناس عليه في تولي الوزارة والقيادة العامة للجيوش لخبرته السابقة بها فتولاها وأخمد الفتنة، ولكنه لما وجد سلطان بخارى أبا الغازي يتهاون في تنفيذ الشرع رغم النصائح المتكررة عزله سنة ١١٩٩هـ/١٧٨٤م وأجمعت الأمة على توليه السلطة فتولاها.

وقام الأمير معصوم المنغيتي الزاهد العابد المجاهد الذي كان يكتفي بالقليل من الطعام، وبثوب واحد خلال العام، قام هذا الأمير بإخضاع بلخ ومرو ومدن أخرى كان يحكمها أمراء متنازعون لا يطبقون شرع الله، فقام هذا الأمير الزاهد باحتلالها وتطبيق الشرع والعدل، وقرّب العلماء، وأبعد أصحاب اللهو، وحارب الفساد والخمور، وشدد النكير على الدولة الصفوية فحاربها حرباً لا هوادة فيها حتى مات سنة ١٢١٧هـ/١٨٠٢م. ثم تولى بعده ابنه سعيد حيدر توره الذي لُقّب بالأمير السعيد حيث كان يقضي معظم أيام حكمه التي دامت ٢٣ عاماً في سلام، يلتزم فيها خلوته لساعات طويلة ويكثر من العبادة والصيام والذكر والصلاة حتى ظهرت على يديه الخوارق والكرامات ومع ذلك كان شديداً في تطبيق الشريعة والالتزام بأحكامها، ونشر العدل والأمن في ربوع البلاد فنعمت البلاد في عهده بالسلام والرخاء.